



ثبت للشام وأهله مناقب بالكتاب والسنّة وآثار العلماء، وهي أحد ما اعتمدته في تحضيري على غزو التتار، وأمرى لهم بلزوم دمشق، ونهى لهم عن الفرار إلى مصر، واستدعائي للعسكر المصري إلى الشام، وتثبيت العسكر الشامي فيه، وقد جرت في ذلك فصول متعددة.

وهذه المناقب أمور: إحداها؛ البركة فيه، ثبت ذلك بخمس آيات من كتاب الله تعالى:

1- قوله تعالى في قصة موسى: {قَالُوا أَوْنِيَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جَيَّنَتَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفُكُمْ} في الأرض فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) ولَقَدْ أَخْذَنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيْنَيْنَ وَنَقْصَنَ مِنَ الْمُنَارَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (130) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطْبَرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحِرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُملَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (133) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَاهَدَ عَنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجْلٍ هُمْ بِالْغُوهَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (135) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (136) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعِفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلْمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (137)) "الأعراف: 129-137"

ومعلوم أنبني إسرائيل إنما أورثوا مشارق أرض الشام وغاربها بعد أن أغرق فرعون في اليم.

2- قوله تعالى: (سُبْحَانَ اللَّهِيَّ أَسْرَى بِعَيْدِهِ لَيْلًا مِنَالْمَسْجِدِالْحَرَامِإِلَىالْمَسْجِدِالْأَقْصَىالَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُالْبَصِيرُ (1)) "الإسراء": وصوله إلى أرض الشام.

3- قوله تعالى في قصة إبراهيم: (وَنَجَّنَاهُ وَلَوْطًا إِلَىالْأَرْضِالَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلُّ جَعْلَنَا صَالِحِينَ (72)) "الأنبياء": 70-71

ومعلوم أن إبراهيم إنما نجا الله ولوطا إلى أرض الشام من أرض الجزيرة والعراق

4- قوله تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَىالْأَرْضِالَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالَمِينَ (81)) "الأنبياء". وإنما كانت تجري إلى أرض الشام التي فيها مملكة سليمان.

5- قوله تعالى في قصة سبا: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَالْقُرَىالَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرْيَ ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18)) سبا

وهو ما كان بين اليمن وبين قرى الشام من العمارة القديمة كما ذكره العلماء.

فهذه خمسة نصوص حيث ذكر الله أرض الشام، في هجرة إبراهيم إليها، ومسرى الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليها، وانتقال بين إسرائيل إليها، ومملكة سليمان بها، ومسير سبا إليها، وصفها بأنها الأرض التي باركتها فيها.

وأيضاً فيها الطور الذي كلام الله عليه موسى والذي أقسم الله به في سورة الطور، وفي: (والتين والزيتون. وطور سينين) "التين: 1-2"، وفيها المسجد الأقصى، وفيها مبعث أنبياءبني إسرائيل، وإليها هجرة إبراهيم، وإليها معراج ومسرى نبينا "صلى الله عليه وسلم"، ومنها معراجها، وبها ملكه، وعمود دينه وكتابه، والطائفة المنصورة من أمته، وإليها المحشر والمعاد. كما أن من مكة المبدأ، فمكة أم القرى من تحتها دحيت الأرض.

والشام إليها يحشر الناس كما في قوله: (لأول الحشر) "الحشر: 3"

نبه على الحشر الثاني، فمكة مبدأ وإلياء⁴ معاد في الخلق، وكذلك بدأ الأمر.

فإنه أسرى بالرسول "صلى الله عليه وسلم" من مكة إلى إيليا، ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه حتى يملكه المهدي بالشام.

مكة هي الأول، والشام هي الآخر في الخلق والأمر، في الكلمات الكونية والدينية.

ومن ذلك أن بها الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة التي ثبت فيها الحديث في الصحاح من حديث معاوية - رضي الله عنه -

وغيره: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة".⁵

وفيهما⁶ عن معاذ بين جبل قال: "وهم بالشام". وفي تاريخ البخاري مرفوعاً قال: "وهم بدمشق". وفي صحيح مسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: "لا يزال أهل الغرب ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة".

وقال أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ: أَهْلُ الْمَغْرِبِ هُمْ أَهْلُ الشَّامِ. وَهُوَ كَمَا قَالَ لِوَجَهِينِ:

أحدهما: أن فيسائر الحديث بيان أنهم أهل الشام.

الثاني: أن لغة النبي - صلى الله عليه وآلله وسلم - وأهل مدینته في (أهل الغرب) هم أهل الشام، ومن يغرب عنهم، كما أن لغتهم في (أهل المشرق) هم أهل نجد وال伊拉克، فإن المغرب والمشرق من الأمور النسبية، فكل بلد له غرب قد يكون شرقاً لغيره، وله شرق قد يكون غرباً لغيره، فالاعتبار في كلام النبي صلى الله عليه وسلم، لما كان غرباً وشرقاً له حيث تكلم بهذا الحديث وهي: المدينة.

ومن علم حساب الأرض بطولها وعرضها علم أن: حران، والرقة، وسميساط على سمت مكة، وأن الفرات وما على جانبها

من البيرة على سمت المدينة بينهما في الطول درجتين لتبيّن فما كان غربي الفرات فهو غربي المدينة، وما كان ثمّ شرقها فهو شرقي المدينة.

فأخبر (صلى الله عليه وسلم) أنّ أهل الغرب لا يزالون ظاهرين، وأما أهل الشرق فقد يظهرون تارة، ويُغلبون أخرى، وهكذا هو الواقع، فإنّ الجيش الشامي ما زال منصوراً.

وكان أهل المدينة يسمون الأوزاعي: إمام أهل الغرب، ويسمون الثوري شرقياً، ومن أهل الشرق.

ومن ذلك أنها خيرة الله الأرض، وأنّ أهلها خيرة الله وخيره أهل الأرض، واستدل أبو داود في سننه على ذلك بحديث كثير مثل:

الحديث عبد الله بن حوالة الأزدي عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-. قال: "ستجندون أجناداً؛ جنداً بالشام، وجندأً باليمن، وجندأً بالعراق". فقال الحوالى: يا رسول الله، اختر لي. قال: "عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبى إليها حزبه من عباده، فمن أبي فليلحق بيمنه، وليسقط من غدره، فإن الله تكفل لي بالشام وأهله".

وكان الحوالى (راوى الحديث) يقول: من تكفل الله به فلا ضيعة عليه. ففي هذا الحديث مناقب المهاجرة.

الحديث عبد الله بن عمرو عن النبي -صلى الله عليه وآلـه وسلم-. قـل: "سيكون هجرة بعد هجرة، فـخيـار أـهـلـالـأـرـضـأـلـزـمـهـمـ مـهـاجـرـإـبـرـاهـيمـ، وـيـقـيـ فيـالـأـرـضـشـرـارـأـهـلـهـاـ تـلـفـظـهـمـأـرـضـوـهـمـ، وـتـقـدـرـهـمـ نـفـسـالـرـحـمـنـ، وـتـحـشـرـهـمـ النـارـمـعـالـقـرـدـةـ وـالـخـنـازـيرـ⁹ـ، تـبـيـتـ مـعـهـمـ حـيـثـمـ كـانـوـاـ، وـتـقـيلـ مـعـهـمـ حـيـثـمـ قـالـوـاـ".

فقد أخبر أنّ خيار أهل الأرض من ألزمهم مهاجر إبراهيم، بخلاف من يأتي إليه ثم يذهب عنه، ومهاجر إبراهيم هي الشام. وفي هذا الحديث بشري لأصحابنا الذين هاجروا من حرّان وغيرها إلى مهاجر إبراهيم، واتبعوا ملة إبراهيم، ودين نبيهم محمد -صلى الله عليه وآلـه وسلم-.

وببيان أن هذه الهجرة التي لهم بعد هجرة أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وآلـه وسلم-. إلى المدينة، لأنّ الهجرة إلى حيث يكون الرسول وآثاره، وقد جعل مهاجر إبراهيم تعذر مهاجر نبينا -صلى الله عليه وآلـه وسلم-. فإنّ الهجرة إلى مهاجره انقطعت بفتح مكة

ومن ذلك أن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها على الشام، كما في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر.

ومن ذلك أن عمود الكتاب والإسلام بالشام كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "رأيتُ كأن عمود الكتاب أخذ من تحت رأسي، فأتبعته بصري فذهبت به إلى الشام"

ومن ذلك أنها عقر دار المؤمنين، كما قال النبي -صلى الله عليه وآلـه وسلم-. "وعقر دار المؤمنين بالشام¹⁰"

ولهذا استدلتُ لقوم من قضاة القضاة وغيرهم في فتن قام فيها علينا قوم من أهل الفجور والبدع الموصوفين بخصال المنافقين، لما خوّفونا منهم، فأخبرتهم بهذا الحديث: " وأن منافقينا لا يغلبوا مؤمنين"

وقد ظهر مصدق هذه النصوص النبوية على أكمل الوجوه في جهادنا للتتار، وأظهر الله لل المسلمين صدق ما وعدناهم به، وبركة ما أمرناهم به، وكان ذلك فتحاً عظيماً ما رأى المسلمين مثله، مثل صرح مملكة التتار -التي أذلت أهل الإسلام، فإنهم لم يهزموا أو يُغلبوا كما غلبوا على باب دمشق في الغزوة الكبرى التي أنعم الله علينا فيها من النعم بما لا نحصيه خصوصاً وعموماً.

والحمد لله رب العالمين، حمدأً كثيراً طيباً مباركاً، كما يحب ربنا ويرضاه، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.